# قواعد تربوية

رمضان ١٤٤٤

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**يوم الخميس 22 رمضان**

**(سورة فاطر 18- 12)**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله -سبحانه وتعالى- بمنه وكرمه أن يجعلنا في هذه الأيام المباركة من المباركين على أنفسهم وعلى أهليهم، ينتفعون بالأوقات المباركة ويقرؤون الكلام المبارك -كلام رب العالمين- ويمتثلونه، ويزكون أنفسهم به، ويدعون ربهم دعوات مباركة تنفعهم في دنياهم وأخراهم، وينشرون علمًا مباركًا يكون في موازين حسناتهم، اللهم اجعلنا مباركين أينما كنا، وانفعنا بهذه الأيام المباركات، فارفع درجاتنا وأصلح أحوالنا ويسر أمورنا واكفنا شر أعدائنا...اللهم آمين.

لا زلنا مع القواعد التربوية من الآيات القرآنية، قواعد تصحح المسار، وتوضح الحق، وتدفع الشبه عنه. ومن أكثر ما يشوش تفكير الإنسان ما يلقيه شياطين الإنس والجن على فكرة وجود الإنسان في الحياة، وعلى وظيفته التي يجب عليه أن يقوم بها، وما أن تشوش الوظيفة ويشكك فيها، إلا تضيع النفس وتتيه! يقع عليها تيه لا ينجيها منه إلا رب العالمين؛ ولذلك الخصومة بين الحق والباطل قائمة إلى قيام الساعة، والخصومة دائرة حول هذا الأمر: وظيفتنا في الحياة، لماذا نحن موجودون؟ وما الحاجة إلى الطاعة والعبادة؟ وكأن شياطين الإنس والجن حين ثقلت

عليهم الاستقامة ما كان منهم إلا أن يشوشوا عقول الخلق لأجل أن يشترك الجميع في البعد عن الحق. فاللهم إنا نسألك يقينًا بالحق، وزكاة لأنفسنا وطهارة لها، يا رب العالمين.

اليوم نقف على شيء حول هذا المعنى، معنى وجودنا ووظيفتنا في الحياة وما يشوش به أهل الباطل على أهل الحق، فنأخذ قاعدة من القواعد التي نربي أنفسنا عليها، أو مجموعة قواعد نربي أنفسنا عليها لتصحيح المسار ولبقاء الحق حقًا، ولدفع الباطل عن أنفسنا، نعوذ بالله من الباطل. نقف مع سورة فاطر نسمع الآيات ثم نتأمل شيئًا من معناها إلى أن نصل إلى القاعدة المراد بيانها:

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (13) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14) يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (18))

هذه الآيات المباركات من هذه السورة العظيمة -سورة فاطر- مررنا فيها على معانٍ عظيمة، أخبار عن أفعال الله -عزَّ وجلَّ- يخبر -عزَّ وجلَّ- عن قدرته وحكمته ورحمته وكيف أنه سخر للعباد مصالح ومنافع، منها أنه (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) هذا دليل على قدرته -سبحانه وتعالى- وعلى رحمته وحكمته، كل هذا يدل على كماله وعلى انفراده بالملك -سبحانه وتعالى- لأنه وحده الذي يدبر الخلق، وحده الذي ييسر لهم مصالحهم، فهو وحده -عزَّ وجلَّ- الذي يرجى ويعبد ويسأل.

(ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ) هو وحده -سبحانه وتعالى- مالك الملك انفرد بخلق هذه الأشياء التي ذكرت في السورة وانفرد بتسخيرها، وانفرد بتدبيرها وخلقها لتعلموا عن كمال إحسانه لكم، وكل أحد غير الله (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ) أي أحد تتجهون إليه وتتعلقون به وتنتظرون منه، لا يملك حتى قطمير، لا يملكون شيئًا أبدًا، لا قليل ولا كثير، حتى ولا القطمير! الذي هو أحقر الأشياء، فكيف تتعلق قلوبكم بهم وهم لا يملكون شيئًا لأنفسهم من أجل أن يملكون شيئًا لكم؟ لكن الله هو الذي يسخر، هو الذي يعطي، هو الذي ينفع، فإذا وجدت مصلحة من أحد من العباد فإن الله وحده لا شريك له قد سخره لك، فلا يتجه قلبك بالرجاء إليه.

بيّن هذه الحقيقة رب العالمين (إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا) على وجه الفرض والتقدير (مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) لأنهم لا يملكون شيئًا (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ) ذاك اليوم الفاصل (يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) يتبرؤون منكم (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) لا أحد ينبئك بالحقائق إلا رب العالمين، لا أحد

ينبئك أصدق من الله العليم الخبير، فلتكن حقائق القرآن في قلبك مطلقة، افهمها وتدبرها وفكر فيها، واجعلها قائدة لك إلى الصراط المستقيم.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) اجزم بما في القرآن من حقائق ينبئك أنباء لا شك فيها ولا مرية، ينبئك عما كان وعما سيكون. فلنتخذ كتاب الله لنا قائدًا وهاديًا ولنتمسك بحبله من أجل ألا نتوه في هذه الحياة.

ثم يأتينا هذا الخطاب المهم، الذي منه سنخرج أيضًا بقاعدة غاية في الأهمية، وهي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) وهذا دفع لتوهم قد يتوهمه بعض الخلق بأن عباداتنا هذه لحاجة ربنا -تعالى الله- بل لا بد أن نضع أمام أعيننا هذا الخبر المهم، فرب العالمين ينبهنا بأنه غني عن كل الخلق، وأن دينه لا يعز بأحد، وأن مصير الأعداء إلى الفناء، ومصير الإسلام إلى العلو، هذا الشعور الذي في نفس الإنسان بالفقر شعور فطري لا يمكن لأحد أن يقاومه، ورب العالمين ينبهنا عليه، ليبين لنا أن طاعاتنا وعباداتنا مصلحتها عائدة لنا.

(أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ) فإذا أعرضتم أو كفرتم فإن الله غني عنكم، فلا يحسب شخص أنه بكفره أو بإعراضه أو بعدم قبوله للحق يضر الرب -سبحانه وتعالى- بل الله غني عن استجابة المستجيبين وعن عبادتهم، وهو -عزَّ وجلَّ- موصوف بالحمد لمن عبده واستجاب لدعوته (إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) فهو -عزَّ وجلَّ- حميد يحمد على أن خلق الخلق وشرع لهم الشرع، يحمد على أنه -سبحانه وتعالى- جعل ملجأ الخلق إليه، وردهم إليه -سبحانه وتعالى- فهم في الحقيقة فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا، وهم فقراء

في إعدادهم، فلولا أنه أعدهم بأعضائهم وجوارحهم لما استعدوا لأي عمل كان، فقراء في إمدادهم، فلولا أنه مدهم بالأرزاق والأقوات والنعم الظاهرة والباطنة ما كان لهم حياة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، وفي دفع المكاره وإزاله الشرور والمكائد، فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكربتهم وإزالته لعسرتهم لتخطفتهم المصائب والمكاره والشدائد، الخلق فقراء إلى رب العالمين بجميع أنواع التربية وكل أجناس التدبير، فقراء إليه، حتى وقتما يريدون عبادته وتأليهه -سبحانه وتعالى- لو لم يوفقهم لهلكوا، ولو لم يشرع لهم الشرائع لفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم ومجتمعاتهم. فقراء إيه في تعليمهم ما لا يعلمون، فلولا تعليمه ما أرشد الخلق إلى شيء من الحق، ولا أرشدوا حتى لشيء من مصالحهم في الدنيا. فقراء إليه -سبحانه وتعالى- يرشدهم كيف يعملون، ولولا توفيقه -سبحانه وتعالى- لم يصلحوا شيء، بل كانوا فاسدين مفسدين، فالناس فقراء بالذات إليه، كل إنسان فقير غاية في الفقر، وكل مرة تقول: (أنا أحتاج لشيء) فأنت تقول: (أنا فقير إلى هذا الشيء) فانظر كيف نحتاج، غاية الحاجة، في تقلبنا وتحركنا وسكوننا، فإذا امتنعنا عن الطعام احتجناه، وإذا عطشنا احتجنا الماء، فإذا دخل إلى أجوافنا احتجنا أن نخرجه، وإذا تعبنا احتجنا إلى النوم، وإذا نمنا احتجنا إلى الحركة، إذا كنا ساكنين ركدت أبداننا فنحتاج للحركة لكي يكون هناك صحة في أبداننا، وهكذا في كل أحوالنا نحن فقراء، فنحن فقراء بذواتنا إلى الله، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعرنا بفقرنا أو لم نشعر، لكن الموفق هو الذي يرى فقره في كل أحواله إلى ربه، في أمور

دينه ودنياه، ويحوِّل هذا الفقر إلى تضرع له، وتصبح حاجاته الماسة سببًا عظيمًا لسؤال رب العالمين الرحمة.

ولذلك أهل الإيمان يقولون في أذكارهم "يا حيّ يا قَيُّومُ برحمتك أستغيثُ، أصلحْ لي شأني كلَّه، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نفسي طَرْفَةَ عين"[1] فيبقى الإنسان يتضرع إلى الله، ويسأل الله ألا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره ويكون هذا المعنى قائم في نفسه دائمًا، وهو -سبحانه وتعالى- رحمته وسعت كل شيء، وعمت كل حي، فمن لأهل الإيمان المتقين إلا رب العالمين، وهم بهذا يشتركون مع بقية الخلق، فالكل فقير إلى الله، لكن أهل الإيمان رزقوا بصيرة يرون فيها فقرهم إلى رب العالمين ويرون فيها غناه -تعالى- فيطلبون منه -سبحانه وتعالى- كل أمر عظم أو دق، لأنهم يعرفون فقرهم ويعرفون غنى ربهم.

وهو الحميد في ذاته وأسمائه، فأسماؤه حسنة وصفاته علا وأفعاله كاملة، محسن إلى خلقه، ترى آثار حكمته في كل شيء وترى آثار رحمته في كل شيء، في تدبيره وفي أمره وفي نهيه، فهو الحميد يحمد على كماله ويحمد على منته، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده، سبحانه وتعالى.

فاستقرارا هذا المعنى في نفس الإنسان؛ أنه فقير، يجعله يعرف أن كل طاعة وعبادة إنما مرجعها إليه، نفعها إليه، نحن فقراء إلى رب العالمين وهو غني عنا، فأي عبادة وطاعة فنفعها عائد إلينا، ورب العالمين غني عنا، لذلك أتت الآية التالية (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) فتذهبون

---

[1]() أخرجه النسائي في السنن الكبرى (10405).

ويأتي بآخرين يكونون عابدين طائعين، فيعجل بموت هؤلاء الملحدين المعارضين، ويأتي بجيل من أبنائهم مؤمنون (وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) ليس عزيزًا ممتنعًا، بل الله -عزَّ وجلَّ- على كل شيء قدير؛ يذهبكم إن شاء إذهابكم، ويبدلكم بقوم طائعين، فلا تعرِّضوا أنفسكم للهلاك، ولا يكن في قلوبكم استهانة لما خلقكم الله له.

ويزيد الأمر بيانًا في كون أن الإنسان في الدنيا حين يعرِّض نفسه للاستغناء عن الله، الله قادر أن يذهبه ويأتي بغيره عابد طائع، ثم يوم القيامة (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) ويوم القيامة لو فكر إنسان مثقل بالخطايا والذنوب أن يستغيث بمن يحمل معه بعض أوزاره لا يحمل منه شيء، ولو كان ذا قربى. فلا تخرج من الدنيا ونفسك مثقلة بالخطايا والذنوب ولا تفكر أنك لو دعوت أحد من أحبتك سيحمل عنك، والله لا أحد يحمل عن أحد، حال الآخرة ليس مثل الدنيا، ففي الدنيا ربما ساعد الصديق صديقه والقريب قريبه، في الآخرة يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقربائه، من أجل أن تنفعه الحسنة؛ لذا رب العالمين يخاطب نبيه الكريم (إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) هؤلاء الذين يصح تفكيرهم ويحسن تصرفهم لأن الخشية لله تجعل العبد يحمل هم اللقاء فيستحي من الله، ويستحي أن يلقى الله وهو مثقل بالذنوب، فيهرب مما يضره عند الله.

وانظر إلى صفتهم (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) وهذه صفة كمال أهل الإيمان، هؤلاء الذين ينتفعون بالخطاب، ويعرفون أن الضر، ضر الإعراض والمعصية، لا يضر إلا من أعرض، وأن الله

غني، فهؤلاء يخشون ربهم بالغيب، مؤمنون بالغيب، مخلصون في خشيتهم.

ومما يعينهم على ذلك صلاتهم، وهنا يأتي تأكيد للمعنى الذي مر معنا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) فبيَّن -عزَّ وجلَّ- حال المتزكي، (وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ) من بقي معتنيًا بنفسه ينقيها من العيوب، ملتفتًا إليها، مراعيها، إذا شعر من نفسه رياء طهرها، إذا شعر من نفسه كبر خاصمها، إذا شعر من نفسه مكر أو خداع أقبل على نفسه وهذبها. فتجد هذا الإنسان المؤمن يعرف أن مصلحة التزكية عائدة عليه، ويعرف هذا القلب المخبأ في صدره؛ بحركاته وأمنياته وأمراضه، إذا زكى فعود الزكاء له، وإذا خبث فعود الخَبَث له. فتجده، ولا أحد يشعر به، ولا أحد يشعر بما في نفسه، مثلا من كبر أو رياء، تجده يخشى ربه غاية الخشية من خاطرة رياء مرت عليه، أو من لحظة كبر شعر بها، أو من مكر دار في قلبه؛ أراد أن يمكر بأحد أو أراد أن يمكر بآية من آيات الله، أو احتقر أحدًا من الخلق في نفسه أو أعجب بعمله، ترى هذا الذي يخشى ربه بالغيب وأقام الصلاة لا أحد يشعر به ولا بهذه الخواطر التي في قلبه لكنه يستعظمها ويبكي بين يدي ربه يسأله أن يغفرها، ويبذل جهده أن يطهرها، وتجده يلح على ربه بطهارة قلبه، وتجده ينفق في سبيل الله رغبة منه أن يكفر عن خطاياه، وأن يشفي الله قلبه ويزكيه.

نلاحظ أن صفتهم أنهم: (يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ) هذه الصفة يظهر أثرها في أنه يحاسب قلبه حسابًا عسيرًا، ويلحظ لفتات قلبه ملاحظة شديدة، ويرجو، وهذا أعظم أمانيه؛ أن يلقى ربه بقلب سليم. ويعلم أن مصلحته في تطهير القلب، وهي عملية ليست سهلة بل متعبة وشاقة ومؤلمة، وكل

مرة يكتشف الإنسان في نفسه شيء من الحقد والحسد يشعر بالألم أن هذه صفته، لكنه يعود إلى ربه ويتوب ويدعو ويعمل أعمالًا صالحة علَّ الله بها ينجيه ويطهره، وفي نفس الوقت يبذل جهده أن يتحلى بالأخلاق الجميلة فيحرص على الإخلاص، وعلى مناجاة رب العالمين وطلب رضاه، يحرص على التواضع، على لين الجانب، يحرص على أن يسلم صدره من الحقد والحسد ومن مساوئ الأخلاق، وهو لا زال يعلم أن تزكيته لنفسه تعود له. وأن عند الله لا يضيع شيء، وأن الله يحمد -سبحانه وتعالى- على أن أرشدنا لتطهير أنفسنا، يحمد على شرعه الكريم.

(وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) فيجازي الخلائق على ما فعلوا ويحاسبهم على ما قدموا، فالإنسان في هذه الحال يكون مؤمن بغنى رب العالمين وبفقره إليه.

وهنا نعود إلى الآية الخامسة عشر مرة أخرى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) بعدما فهمنا في السياق ما المقصود، وأن المقصود أن إعراضكم عن ربكم لن يضر الله شيئًا، وأن إقبالكم على إصلاح أنفسكم وتزكيتها أنتم أصحاب المصلحة فيه، نعود فنتكلم هنا عن أعظم الأمراض التي يمكن أن يواجهها الإنسان حين لا يتيقن بفقره إلى الله. هذا المرض قد نزلت الآيات تبينه، بل نزل في أول سورة نزل في القرآن الخبر عن هذا المرض (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) فالعبد إذا لم يشعر بفقره أصيب بالطغيان، وهذا المرض العظيم الخروج من الطغيان هذا المرض العظيم أعسر ما يكون بعدما يتمكن في الفؤاد، فالإنسان إذا غابت عنه حقيقة فقره، سيحتل مكان هذا الشعور بالفقر

الطغيان، خصوصًا لو كانت عنده أدوات، خصوصًا لو كان عنده ما يجعله يصل إلى التمكن. فهذا يصبح الطغيان من طبعه وسمته، فإذا تمكن أكثر وأكثر زاد الطغيان أكثر وأكثر وأصبح من العسير تطهير القلب، وربما مارس الإنسان الطغيان وهو لا يشعر.

الآن ما عندنا إلا اختيارين؛ إما شعور بالفقر لله -عزَّ وجلَّ- وإما مباشرة يدخل الطغيان على الإنسان، ومن ثم تجده، بدون ما يشعر، يأتي لكل فرصة لإظهار طغيانه فيمارس هذا الطغيان فتراه إن تصدق من على الفقراء، وتراه إن أحسن، أكثر الكلام عن إحسانه، وتراه إذا ملك أمر بسيط، تحت إدارته يكون شخص أو شخصين ظهر من أمراضه وطغيانه ما ظهر في التعامل معهم، فالإنسان يتجاوز حده ويستكبر على ربه إن رأى نفسه مستغنيًا،(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) حقًا هذا الأمر موجود، فبمجرد غياب شعور الإنسان بالفقر يحل محل ذلك الطغيان. فالإنسان بعدما ينعم عليه رب العالمين بتسوية خلقه وتعليمه ما لم يكن يعلم، وينعم عليه بما لا كفء له، يستغني عن ربه ويطغى عليه أن رأى نفسه مستغنيًا، فنعوذ بالله من هذه الحال، نعوذ بالله من أن نكون ممن يطغى بمجرد أن يملك شيئًا، بمجرد تمكنه من شيء، فهذه الطباع الإنسانية، رب العالمين يكشفها لنا. من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، والطغيان يعني التعاظم والكبر، أول ما يشعر بالاستغناء، يرى نفسه يملك شيئًا، أو متمكن من شيء، تحدثه نفسه مباشرة بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال هذا الشعور يربو في نفس الإنسان، حتى يصبح خلقًا عند الإنسان! وهذا للقوم الذين لا يخشون ربهم ولا

أقاموا الصلاة، فتذللوا وانكسروا لرب العالمين، هؤلاء القوم لا يعلمون أن تزكيتهم لأنفسهم تعود مصلحتها لنفسهم.

إذًا هذا الأمر طبع في الإنسان لا بد له أن يقاومه، مثلما يكون الإنسان مطبوعًا على العجلة، ومثلما الإنسان مطبوع على البخل، فكذلك الإنسان مطبوع على الطغيان إذا أحس من نفسه الاستغناء، إلا من عصمه خلقه ودينه، هؤلاء القوم الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ويعلمون أن من تزكى فإنما يتزكى لنفسه.

ما علاج هذا الشعور؟ نلاحظ أن الخلق يصابون بهذا الخلق الضار بطريقة أن الإنسان نفسه تحدثه أنه ليس محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج له، فيرى نفسه أعظم من أصحاب الحاجة، وهذا الوهم يكبر في نفسه حتى يصير خلقًا له، وحين يصبح خلقًا له حتى الدين لا ينفعه، إلا إذا سلط دينه على هذا الخلق؛ لأنه يمكن أن يكون مصليًا صائمًا، لكن أول ما يتمكن تصبح هذه أخلاقه، فلا بد من جهد لتزكية النفس وتصحيح التفكير، فيطغى على الناس الذين يرى أنه له سلطة عليهم، أو هم لا يستطيعون التسلط عليه، فأي إنسان لا يخاف بأسه ولا يخاف أنه يتهجم عليه، يتسلط هو عليه! وكلما صارت له سلطة أكبر صار في قلبه طغيان أكثر. هذه حقيقة نفسية عظيمة لا بد أن نكون حذرين من أن تتغلغل في نفوسنا، ولنذكر أنفسنا دائما أننا إلى الله فقراء في كل أحوالنا، فقراء مع ما نملك من كل هذه الأشياء، فإن بقاءها وسلامتها؛ سلامة جوارحنا، سلامة عقلنا، سلامة مُلكنا، إنما كله عائد إلى الله الذي يحفظه، فاللهم احفظ علينا إيماننا واحفظ علينا أخلاقنا وابعدنا يا رب العالمين عن الطغيان.

وفي كلام لابن القيم في هذ الآية مزيد بيان لأنواع الفقر المطلوب أن نستشعره ونعيشه لتتهذب نفوسنا. يقول:

والمقصود: أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه -سبحانه- كما أخبر عن ذاته المقدسة، وحقيقته أنه غني حميد.

فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي.

والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا. ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلّا غنيّا. كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبدًا ويستحيل أن يكون الرب إلا ربًّا.

إذا عرف هذا فالفقر فقران:

فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبرّ ولا فاجر عنه، وهذا لا يقتضي مدحًا، ولا ذمًا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا. وهذا الأمر الذي في الحقيقة كلنا نشترك فيه، في الحقيقة كلنا فقراء إلى الله، فهو الذي أعدنا وأمدنا وخلقنا -سبحانه وتعالى- فحاجتنا إلى رب العالمين مشتركة بين الخلق كلهم لكن ليس هذا الذي فيه المدح، وليس هذا الذي يأتي معه تزكية النفس؛ لأن هذا واقع، واقع.

والفقر الثاني فقر اختياري هو من أين أقوي شعوري بالفقر إلى الله؟ نتيجة علمين شريفين:

أحدهما معرفة العبد بربه.

والثاني معرفته بنفسه.

فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا له فقرًا هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته، وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التامّ والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئًا ولا يقدر على عطاءٍ ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كما له أمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أحد، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. فنحن في الأصل لو فكرنا في خروج الجنين من بطن أمه، لا يملك أي شيء، لا يعلم شيئًا ولا يقدر على شيء ولا يقدر على عطاء ولا على منع، وهذه هي حقيقة حالتنا إلا أن الأشياء تضاف إلينا فنعتقد أننا نملكها.

وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره. حتى لو كبرت، لا زالت هذ الأشياء تضاف لك من عند رب العالمين، فقدرتك على أن تأمر وتنهى وتعطي

وتمنع، هذه شيء أضافها ربنا إليك، لكن أنت بالضبط مثل الطفل الذي خرج من بطن أمه، لا يعلم شيئًا، لا يقدر على شيء، لا يملك شيئًا، لا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر.

فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه، ومكنه من استخدام بني جنسه، يمكن أن يكون غني ومن ثم الناس يعملون عنده، أو الناس مسخر بعضهم لبعض، وسخر له الخيل والإبل، وسلطه على دواب الماءِ، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية، حفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناءِ، والتحيل على مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيبًا من الملك، وادعى لنفسه ملكًا مع الله سبحانه، ورأى نفسه بغير تلك العين الأُولى، ونسى ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصًا آخر غيره.

من هاهنا خذل من خذل ووفق من وفق، فحجب المخذول عن حقيقته ونسى نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وبغى وعتا فحقت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغَىَ أن رَّآهُ اسْتَغْنَىَ﴾ [العلق: ٦-٧] وقال: ﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَىَ واتَّقَىَ وصَدَّقَ بِالحُسْنَىَ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىَ وأَمَّا مَن بَخِلَ واسْتَغْنَىَ وكَذَّبَ بِالحُسْنَىَ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىَ﴾ [الليل: ٥-١٠]

فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: "أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك"، وكان يدعو: "يا مقلِّب القُلُوبِ ثَبِّتْ قلبِي عَلى دينك". يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عَزَّ وجَلَّ لا يملك منه شيئًا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاءُ، كيف وهو يتلو قوله تعالى: (وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) [الإسراء: ٧٤] المعنى أن رب العالمين هو الذي يثبت، وهو الذي ثبت رسوله، فالنبي ﷺ يعلم أن قلبه بيد الرحمن، وقلوب العباد كلها بيد الرحمن، فنحن غاية في الفقر إلى رب العالمين.

فضرورته ﷺ إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه ومنزلته عنده. وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاءِ، يقصد بذلك أن حقيقة الفقر إلى الله كانت متمثلة في النبي ﷺ، وباقي من بعده بدا لهم من هذه الحقيقة الشيء البسيط، ولهذا كان أقرَبَ الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهًا وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه عز وجل، وكان يقول لهم: "أيها النّاسُ، ما أُحبُّ أنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنزِلَتِي إنَّما أنا عَبْدُ"، وكان يقول: "لا تُطْرونِي كَما أطْرَتِ النصارى المسيح ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا: (عبد الله ورسوله)".

فهذا أمر عظيم، **الشعور بالفقر يكاد يكون هو أصل العبودية وأصل الانكسار والذل لرب العالمين**، شعور الإنسان أنه ليس بشيء وإنما هو بالله، وأن حاله لا تطيب إلا بالصلة بالله، لا قوة ولا قدرة له، كما نردد (لا حول لنا ولا قوة إلا بالله)، فبـ (لا حول ولا قوة إلا بالله) يعيش

الإنسان الحياة، لكن الناس في شعورهم بهذا الأمر درجات، ودرجات شعورهم بفقرهم لربهم تكاد تكون هي درجات عبودتيهم، وكلما توسع شعورنا بالفقر إلى ربنا، كلما زاد منا ذكر ربنا. فلو شعرنا أننا لا نقوم إلا به وبعون منه، ولا نجلس إلا بعون منه، ولا نصلي إلا بعون منه فسيكون جلوسنا بذكره، وقيامنا بذكره. لو كنا نشعر أننا لا نأكل ولا نتغذى إلا برحمة منه -سبحانه وتعالى- وأنه هو الذي يجري الطعام مجراه، وأنه هو الذي يحفظ هذا الطعام فيدخل إلى مكانه، ولا يميل هنا ولا هنا، لو كنا نشعر بذلك لطلبنا منه -سبحانه وتعالى- تيسير دخوله لكن العادة غلبت علينا، فانظر كلما توسع الشعور بالفقر، كلما زاد الذكر والسؤال والرجاء والعبودية؛ لأن الإنسان حين ينقص عليه شيء في الدنيا يشعر أنه فقير إلى ربه في هذا الأمر، وبقية الأمور التي يعطيه ربنا إياها يشعر بالطمأنينة أنه قادر عليها.

ولنضرب مثالًا: الإنسان بصحته، الحمد لله يسير على قدميه، ويقضي حاجته بنفسه، نسأل الله أن يشفي مرضانا ومرضى المسلمين، إن أصابه مرض وأقعده عن السير، ومنعه عن قضاء حاجته، كيف يكون ابتهاله ودعاؤه لرب العالمين وفقره من أجل أن يقوم فيقضي حاجته، أو كيف يكون دعاؤه ورجاؤه حين يريد أن يأكل اللقمة الصعب دخولها إلى مكانها؟! يكون عظيم لكنه ما شعر بذلك إلا حين نقص ذلك، والكمال أن تشعر بفقرك وأنت بعافية، وإذا نقص عليك شيء تزداد شعورًا بالفقر. لذلك كل شيء يشعر الإنسان أنه متمكن فيه لا تجده عابدًا فيه كما ينبغي. لو الإنسان أوتي ذاكرة قوية وأقبل على حفظ القرآن لا تجده مثل الذي أوتي ذاكرة ضعيفة، ومن أوتي ذاكرة ضعيفة فيستغيث ربه ويسأل ربه

في كل صفحة يحفظها يسأل الله ويكثر من إظهار فقره إلى الله، في مقابل من أوتي ذاكرة قوية يستغني عن الله لشعوره بالتمكن من الأمر.

فانظر إلى خطر الاستغناء كيف يحيط بنا، ومرحلة الاستغناء يمكن أن تصل إلى مرحلة الطغيان، فنعوذ بالله من الضلال، أمر مهم وعظيم يحتاج إلى تفكير ولنعلم أن ضعف عبوديتنا مصدره هذا الإشكال، ضعف عبوديتنا نسياننا أن نسمي الله أثناء أكلنا، وأن نحمد الله بعد أكلنا، أن نذكر الله حين نركب، وحين نمشي أن نسبح الله، سبب هذا كله داء الاستغناء.

فلنعد إلى حقيقتنا أننا فقراء، ولنذكر أنفسنا بفقرنا ولنعرف أننا نعيش برحمة الله وألطافه، وأن نعرف أنه ما يجري عطاء علينا إلا من عطاء الله، ولا أحد يمد يده لنا إلا من تسخير الله. فلنظهر لربنا فقرنا ولنعيد هذا المعنى على أنفسنا، ولنزكي أنفسنا من كل الأمراض خاصة مرض الاستغناء، خاصة الطغيان، احذر أن تطغى، ولنعد إلى هذا المعنى ولنفكر فيه، ونرى حقيقته في حياتنا، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يكشف عنا الحجب، نسأل الله أن نكون ممن عرف حقيقته تدارك أمره قبل أن يلقى ربه، نسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن نكون ممن زكى نفسه (وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ) نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يعيننا على الصيام والقيام، وأن يبلغنا قيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، نحن والمسلمين...اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.